وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

في مسيرة اليد والقلم
إلى عبد السلام بنعبد العالي

بقلم منصف الوهايبي

تاريخ النشر: 30-05-2008

إلى عبد السلام بنعبد العالي

ذهب المسلمون في أساطيرهم إلى أنّ القلم هو أوّل ما خلق اللّه، وأوّل ما بدأ بذكره في الكتاب، وأنّه وصف نفسه بأنّه علّم بالقلم، وأبان أنّ صناعته أفضل الصّنائع .وكان للكتّاب والشّعراء منادح واسعة في وصف هذه الأداة (القلم) شعرا ونثرا. فقال فيه ابن المقفّع : "القلم من نعم اللّه الجليلة ومواهبه الجزيلة... فهو الكيل السّابق والسّكّيت النّاطق، به اتّسعت الأفهام، وضبطت العلوم والأحكام، ولولا الأقلام لضاق الكلام،وقلّت الحكّام، ونسيت الأحكام". وقال في موقع آخر: " القلم بريد القلب، يخبر بالخبر، وينظر بلا نظر". وقال عبد الحميد الكاتب:"القلم شجرة ثمرها الألفاظ، والفكر بحر لؤلؤه الحكمة".
وأورد حمزة الأصفهاني نصّا لمسلم بن الوليد عدّه من " الوصف الجامع لاستعمال القلم". وممّا جاء فيه أنّ القلم " يظهر ما سدّاه العقل ، وألحمه اللّسان، وبلّته اللّهوات، ولفظته الشّفاه، ووعته الأسماع، وقبلته القلوب".
وينسب إلى أحمد بن يوسف الكاتب الوزير قوله : "القلم لسان البصر، يناجيه بما استتر عن الأسماع ". وقال محمّد بن عبد الملك الزّيّات:"بالقلم تزفّ بنات العقول إلى خدور الكتب". فهذه الشّذرات وغيرها ممّا جاء شعرا وهو كثير، تبين عن الكتابة بوجهيها الفنّي الجمالي الرّاجع إلى علم الخطّ، واللّغوي اللّساني الرّاجع إلى علم الإملاء، أو ما يسمّى قديما بالهجاء، وهو يعنى بالعلاقة بين الرّمز المكتوب والصّوت المنطوق، ومدى مطابقة هذا لذاك أو قصور الكتابة عن تمثيل المنطوق تمثيلا كاملا وكثيرا ما يلتبس الوجهان في هذه الأقوال.

ولعلّ من أظهر ما في هذه الشّواهد وبخاصّة ما اتّصل منها بأحكام الكتابة من بري وقطّ واستمداد وتسوية وشكل ونقط، أنّ تصوّر الكتابة عند القدامى، معقود على آصرة متينة بين الزّمانيّ والمكانيّ أو بين الصّورة المنطوقة والصّورة المكتوبة،حتّى أنّهم استعاروا للخطّ مصطلحات لغويّة نحويّة مثل اللّحن والضّرورة في باب ما أسموه " لحن الخط والتّسوية وما يجوز وما لا يجوز في ذلك وما يستحسن في الضرورات وما يستقبح". وممّا جاء فيه " فمن لحن الخطّ مدّ ما لا يجوز مدّه، وقصر ما لا يجوز قصره، وإفراد حرف من كلمة في غير سطره." وذكر المؤلّف أنّ المسلمين اختلفوا في قول عثمان :" إنّ في المصحف لحنا تقيمه العرب بألسنتها"، وذهبت طائفة منهم إلى أنّ المراد ـ إن صحّت هذه المقالة ـ لحن الخطّ لا اللّفظ. ذلك أنّ زيدا بن ثابت كاتب الوحي (ت45ه) كتب المصحف بقلم مبسوط، فكان يقطع في بعض الأماكن اللّفظة، في آخر السّطر، ويجعل باقيها في السّطر الثّاني؛ فنبّه عثمان على أنّ هذا وإن كان لحنا في الخطّ لا يؤدّي إلى لحن في اللّفظ.
وجعلوا إيقاع الخط من إيقاع اليد الخاطّة، وحركته من حركتها، ووصلوا ما بينها وبين الفكر كما نجد في وصف أبي تمّام، حيث اليد الممسكة بالقلم، هي اليد- الفكر:

إذا امتطى الخمس اللّطاف وأفرغت عليه شعاب الفكر وهي حوافـل

إذا صرفنا النّظر- عن صورة المسيل الحافل التي يتّخذها الفكر، ولعلّ مصدرها الماء نفسه، فهو لا يحمل في ذاته لونا ولا شكلا، ولذلك تنعكس فيه صور شتّى الكائنات؛ إذ لو كان له لون أو شكل لما أمكن أن يعكس أيّ صورة ـ فإنّ حركة اليد في هذا الشّعر هي حركة الفكر ومجلى الكتابة. وعليه لا غرابة أن يدقّق الشاعر وصف الأصابع الممسكة بالقلم، على نحو ما نجد في المصنّفات المخصوصة بالكتابة فـ"صفة مسكه[القلم] بالإبهام والوسطى غير مقبوضة، لأنّ ببسط الأصابع يتمكّن الكاتب من إدارة القلم، ولا يتّكئ على القلم الاتّكاء الشّديد المضعف له، ولا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

يمسك الإمساك الضّعيف فيضعف اقتداره في الخطّ..." أو قولهم : " إذا أراد [الكاتب] يأخذ القلم فيتّكئ على الخنصر، ويعتمد بسائر أصابعه على القلم، ويعتمد بالوسطى على البنصر، ويرفع السّبّابة على القلم، ويعمل بالإبهام في دوره وتحريكه ".

ولولا خشية أن نرمى بالتمحّل على هذه النّصوص، لحملناها على معنى الكتابة كما يراها بارط، فهو يذهب إلى أنّ حقيقة الكتابة "في اليد التي تضغط وتسطّر وتنقاد، أي في الجسد الذي ينبض(الذي يستمتع)". ويضيف في ذات الموضع : "إذا كنّا نرفض"الايديوغرام"[رسم الفكرةL'idéogramme فلأنّنا نسعى دون انقطاع، في غربنا، أن نحلّ سلطة الكلمة، محلّ سلطة الحركة... إنّ الحركة ...موجودة في عمق الإيديوغرام مثل نوع من الأثر التّصوير، مبخّر ". ويبيّن أنّ البشر زاولوا طويلا الكتابة اليدويّة، ما عدا الطّباعة. ولذلك فـ" إنّ مسيرة اليد، وليس إدراك أثرها المرئيّ، كان الفعل الأساس الذي تحدّ بواسطته، الآداب وتتدارس، وترتّب".

هذا الفنّ المنظّم، هو الذي نسمّيه "علم قراءة النّصوص القديمة" Le ductus : Paléographie وفي الكتابة الرّمزيّة Idéographiqueطبعا، يكون لـ Ductus أهميّة أكبر".

على أنّ حركة اليد، في هذا الشّعر الذي نحن به، ليست حركة الفكر ومجلى الكتابة فحسب؛ فاليد محفوفة بجملة من الرّموز والمعاني مثل القوّة والقدرة والسّلطة.

أمّا إذا حصرنا هذه المعاني في اليد الخاطّة أو الكاتبة، فلا نظنّ أنّنا نجانب الصّواب ما تأوّلناها على أنّها اليد "الأسطوريّة " صانعة الأداة، ورمز القوّة الخالقة قوّة الكلمة أو اليد- الفكر المتحرّرة من سلطان المادّة أي " اليد الإلهيّة" أو" يد اللّه" من حيث هي صورة استعاريّة تجسّد" اللاّمرئي"، ولكنّها تخرق المقدّس في ذات الآن. وقد نكون في الصّميم من هذه الكتابة، ما أخذنا بالاعتبار كلّ هذه العناصر(القلم واليد والعقل) على أنّها عناصر متواشجة تتظافر في حدّ الكتابة من حيث هي خلق بالعقل (وهو صفة من صفات القلم) ، والنّظر(وهو سواء حملناه على البصر أو البصيرة تبصّر وتأمّل وتدبّر أي صفة من صفات العقل، كما يدلّ على ذلك المتواتر اللّغوي " عين الصّواب" أو " عين العقل" أو المأثور من الأقوال مثل " القلم لسان البصر"أو "بنوء الأقلام يصوب غيث الحكمة")، واليد (وهي ذات معان مجازيّة متشعّبة مثل الجاه والقدرة والسّلطان وأوّل الشيء والأمر النّافذ والقهر والغلبة والحفظ والوقاية...) وإذا أضفنا إلى ذلك عنصر الماء ـ وصلته في المتخيّل الدّيني بعمليّة الخلق أجلى من أن نتبسّط فيها ـ ساغ لنا أن نتأوّل كلمة"قلم" دون تحميلها فوق ما تحتمل- على أنّها رمز يجسّم الكلمة المقدّسة أو الكلمة من حيث هي جوهر خلاّق. ولكن دون أن يفضي بنا ذلك إلى ذات الاستنتاج الذي خلص إليه محمّد عجينة في قوله إنّ القلم " قرين اللّوح والكتاب، وعنوان الانتقال من حضارة شفويّة إلى أخرى مكتوبة تقدّس الكلمة، كلمة الله، وتقدّس الكتاب (ناهيك عن أنّ النّاس صنّفوا في صلب المملكة الإسلاميّة إلى أهل كتاب ومن سواهم) وإذن فهو حافظ اللّغة والمعنى والتّاريخ وحافظ القيم وضامن كلّ شيء، مانع له أن يذهب هباء منثورا في الدّنيا والآخرة".

ومسوّغات تحفظنا على هذا الاستنتاج ترجع إلى ضرورة التّمييز بين"الكتاب"و"المصحف" أو بين النّص الأم الشّفهيّ (الوحي) والنّص القرآنيّ المكتوب. وقد كان الكتاب يعني من جملة ما يعني الكتابة المتحرّرة من كلّ جسمانيّة، لأنّها الأقدر، في المعتقد الدّينيّ،على تعيين الأشياء الرّوحيّة المجرّدة، دون أن تجسّمها أو تضفي صورة عليها، لسبب قد لا يخفى، وهو أنّ الكلام نفسه، في هذا المعتقد، من طبيعة إلهيّة. ومن ثمّة فهو الذي يناسب أكثر الموضوعات الإلهيّة والأشياء العقليّة. والكتابة بهذا المعنى، تجنح إلى اللّغة المنطوقة أكثر من جنوحها إلى شكلها التّدوينيّ. وربّما نمّ ذلك على ذهنيّة كانت تنتسب إلى رسوخ مبدأ التّسمية في المسمّى، أو معنى الكلمة باعتبارها الجوهر الخلاّق، حيث التّشديد على الوجود الذّهنيّ أو "الرّوحي" للشّيء. وقد يتعذّر أن نفهم الوحي، من حيث هو كتاب غير مكتوب، ما لم نأخذ بالحسبان أنّ الحقيقة اللّغويّة في المتخيّل الدّينيّ، تحتكم إلى المسموع والمحفوظ في الذّاكرة أو الحافظة أكثر من احتكامها إلى ما هو مكتوب. ولهذا المتخيّل ما يسوّغه لسانيّا فـ "الكتابة تنسخ معالم اللّغة، الحقيقيّة، وهي ليست رداء اللّغة بل شيء تتنكّر به".

ولعلّ هذا المبدأ أن يعلّل سببا من أسباب خلوّ الكتابة العربيّة قبل الإسلام وفي طورها الأوّل، من الإعجام والشّكل. وربّما كان في ذلك أكثر من دلالة على الآصرة المتينة بين الزّمانيّ والمكانيّ في الكتابة العربيّة، أو بين المنطوق والمكتوب، حيث المرئيّ في الصّورة المكتوبة ضرب من الحدس، يستدعي أبدا صورته المنطوقة. وهي آصرة لم تنقطع في تاريخ الكتابة العربيّة، حتّى عند استحكام قواعدها وأصولها، وأخذها بالإعجام والشّكل، فقد ظلّت "تتجاهل قيمة الحرف الصّوتي وتترك للقارئ استنتاجه " على حين أنّ الإغريق مثلا أدخلوا الإشارة الصّوتيّة إلى الأبجديّة، منذ أوّل حدثانها.

ولا ينبغي أن نتعجّل فنحمل الأمر على أنّه مظهر من تخلّف الكتابة العربيّة، فلعلّه كان دلالة على معنى من معاني الجمع بين المقروء والمسموع أو بين المرئيّ الحسّي والغيبيّ الحدسيّ، حتّى أنّ ظهور بعض الخطوط مثل

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الثلث والنّسخ والمحقق، يبد وكأنّه كان وقفا على القرآن.
وبسبب من هذا وغيره ، يتعذر أن نرسم حدّا فاصلا، في الثقافة العربيّة بين شفهيّ وكتابيّ أو أن نتّخذ من أدوات الكتابة المطّردة في الشّعر والقرآن، أدلّة على الانتقال من حضارة شفويّة إلى أخرى مكتوبة. والقلم " القرآنيّ" نفسه محفوف بأكثر من أسطورة تقرنه بمعان شتّى مثل الخطّ أو الكتابة والعقل والقدر...وهو الأساس في نظريّة التّوقيف الإلهيّ في نشأة الخطّ حيث يجري القلم بقضاء من اللّه وقدر، كما يذهب إلى ذلك محي الدين بن عربي.

هوامش:
1ـ من هذه الآيات في القلم :
ـ " اقرأ وربّك الأكرم الذي علّم بالقلم علّم الانسان ما لم يعلم " 3/96 (العلق)
ـ " ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربّك بمجنون " 1/68 (القلم)
ـ " وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيّهم يكفل مريم " 44/3 (آل عمران)
2ـالمورد (1986)ص.197
3ـحمزة الأصفهاني التّنبيه على حدوث التّصحيف ص.54
4ـ محمد بن أحمد الزفتاوي، منهاج الإصابة في معرفة الخطوط وآلات الكتابة ص.237
5- ،Voir ،congres de Milan compte rendu du ،1880 ،rapport de c.Terra ،cité par Christian Cuscac ،« Le langage des sourds » ،Payot ،1983 ،p.136-137
ممّا جاء في هذا البيان، بترجمتنا، أنّ " الكلام لا يهيّج الغريزة، ولا يثير الانفعال على نحو ما تفعل اللّغة الوهميّة لغة الإشارات ؛ وإنّما هو يهذّب العقل بصورة طبيعيّة أكثر، وفي رصانة وحصافة وصدق، ويزيح خطر المغالاة في الانفعال بما يقال ..." ويضيف صاحب البيان : " أتحدّى [كلّ من يزعم] تبيين صفات الله والملائكة، والعقيدة والرّجاء والرّحمة والعدل والحقّ وكلّ ما يتعلّق في الدّين بكائنات وأفكار من هذه الطّبيعة، بواسطة إشارات. إ نّ الكلام الح المورد، نفسه ص.52يّ هو أكثر من الكتابة أيضا،لإشارة العقليّة الوحيدة التي تقدر على تعيين الأشياء الرّوحيّة والمجرّدة، دون إضفاء صورة عليها، ودون تجسيمها. الكلام نفسه من طبيعة إلهيّة، وهو الأداة الأكثر ملاءمة للكلام على الموضوعات الإلهيّة والأشياء المعقولة."ـ
6- ، L'obvie et l'obtus ،R.Barthes - -P.142 – 143
7ـمحمد عجينة،موسوعة أساطير العرب

This file was downloaded from QuranicThought.com